مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 1 (رت 70) السنة: 2023

جماليات الأسلوب في كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، دراسة انتقائية

The aesthetics of style in the book Enjoyment and Sociability by Abu Hayyan Al-Tawhidi - a selective study

ريم ميلودي[1]
طالبة دكتوراه، مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي إلى نهاية القرن العشرين،
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم
Rym.miloudi.etu@univ-mosta.dz
د. هشماوي فتيحة
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم
fatiha.hachemaoui@univ-mosta.dz

تاريخ الوصول 2022/07/08 القبول 2022/11/24 النشر على الخط 2023/01/15
Received 08/07/2022 Accepted 24/11/2022 Published online 15/01/2023

ملخص:

نعالج من خلال هذه الورقة البحثية، بعض جماليات الأسلوب، التي احتواها كتاب "الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيّان التوحيديّ"، حيث توصّلنا إلى أنه قد استعان كثيرا بمختلف الأساليب البلاغية (بيانا وبديعًا) من جناس وطباق ومقابلة وتشبيه وتمثيل، بالإضافة إلى أهم ما يتميز به الجنس الروائي من شخصيات وأماكن وأزمنة وحوار وحبكة، أين وظّفها بشكل إبداعي غير خطّي، وركّز على الانتقاء الأسلوبي في تكوين البنية النصية والدلالية للكتاب.

وقد تبين من خلال هذه الدراسة، أنّ كتاب الإمتاع والمؤانسة كتاب نثري، تقاطعت فيه مكونات الرواية بشكل واضح، فهي أقرب إلى الرواية السير ذاتية.

الكلمات المفتاحية: أبو حيان، التوحيدي، الأسلوب، الإمتاع والمؤانسة، دراسة انتقائية.

Abstract:

Through this research paper, we address some of the aesthetics of style, which was contained in the book "Enjoyment and Sociability, by Abu Hayyan Al-Tawhidi", where we found that he has used a lot of various rhetorical methods (statement and exquisite) from alliteration, tabaq, interview, analogy and representation, in addition to the most important characterizations of the novelist genre of characters, places, times, dialogue and plot, where he employed them creatively and non-linearly, and focused on stylistic selection in the composition of the textual and semantic structure of the book.

Keywords: Abu Hayyan, Al-Tawhidi, style, enjoyment and sociability, Selective study

[1] المؤلّف المراسل: **ميلودي ريم** البريد الإلكتروني: **Rym.miloudi.etu@univ-mosta.dz**

1. مقدمة:

تتفاوت أقلام المبدعين في تدبيج عباراتهم ونصوصهم، وذلك بناء على طبيعة فهمهم للغة واستيعابهم لأسرارها ومعانيها، وطرق تحصيلها والإبداع في ضوئها، ومن هنا يختلف شاعر عن شاعر، ويتباين قاصّ عن آخر، انطلاقا من جملة من المكونات البنيوية والصوتية والتركيبية والدلالية، فضلا عن شروط أخرى كثيرة، أفاضت الأقلام في التفصيل بشأنها ليس هذا مقام بسطها.

ويعتبر أبو حيان التوحيدي، أحد أولئك الذين أوتوا بعض أسرار اللغة، فكتبوا بها وكتبتهم، وعقلوا عنها وعقلتهم، وأحسوا بها فأحسّت بهم، فكانت العبارات تجري طوع ما يعتلج في أذهانهم، وكانت المعاني تنصبّ على وقع ما تتراسل في مواجيدهم وخواطرهم. وانطلاقا من هذا التصور، عنّ لنا أن نقوم بقراءة أسلوبية انتقائية، لكتاب الإمتاع والمؤانسة، حتى نمتاح منه تلك الجماليات التي أثّثت لكيانه اللغويّ، الذي امتدّ على مدى سنوات طويلة.

وللاشتغال على هذا البحث، حاولنا الإجابة عن مختلف الأسئلة، من بينها:

- ما هي مرجعيات الخطاب الأدبي لدى أبي حيان التوحيدي؟
- إلى أيّ جنس أدبيّ يمكن تصنيف كتابه "الإمتاع والمؤانسة"؟
- ما هي السمات الأسلوبية التي تطبع لغته؟

2. الأسلوبية وتحليل الخطاب النثري

1.2 . الأسلوبية وإشكالية التصنيف:

تعتبر الأسلوبية خلاصة ما تمّ مناقشته في حقل اللسانيات، تحت باب اللغة والكلام، أين توصّل (شارل بالي) **Charles Bally**) إلى أنّ الكلام نوعان، وذكر في نهاية الأمر، الكلام المليء بالعواطف، المرتبط أساسا بالمشاعر المختلفة كالغضب والحزن والسرور، والتي تطفو بشكل بارز وتظهر، من خلال تأمل نبرات الكلام وتنغيماته، وطرق التلفظ به.

ثم جاء من بعد شارل بالي تلامذته، الذين أدخلوا الخطاب الأدبي إلى حقل الدراسات الأسلوبية، بعدما كان مغيّبا لدى أستاذهم، وأخذت القراءات الأسلوبية تتنوع وتتعدد، حتى بدأت الاتجاهات والمناهج تظهر وتتشكل، الأمر الذي ساعد اللغويين والنقاد الغربيين والعرب، على عملية التصنيف التي جرت لاحقا، لاتجاهات علم الأسلوب، وهو الأمر الذي ناقشه نقادنا العرب بشكل مستفيض في كتبهم، ومن بينهم: عبد السلام المسدّي من تونس، وصلاح فضل من مصر، ونور الدين السد من الجزائر.

وإذا تأملنا تلك التصنيفات، وجدناها لا تكاد تخرج عن التوزيع الآتي:

أ- تصنيف وفق جهات الاتصال الجاكبسسونية:

وفيه يمكننا الحديث عن تجربة (عبد السلام المسدّي) في كتابه (الأسلوبية والأسلوب)، الذي قام من خلاله، بمناقشة تجليات الأسلوب وفقا للأقطاب الثلاثة: (المخاطِب، الخِطابُ، المخاطَب)، وحتى لا نترك الكلام بدون دليل، نسوق للقارئ بعض الاقتباسات:

قال (عبد السلام المسدّي) في سياق تعريفه للأسلوب من جهة (المخاطِب) "إنّ الأسلوب هو فلسفة الذات في الوجود وإذ هو كذلك فلا يكون إلا مُغرقًا في الذاتية تماما"[1]

[1] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط5، 2006م، ص53.

وأما من جهة (الخطاب)، فقد ذكر أنه "لا يبقى من تعريف له إلا كونه كائنا منشودا منذ لحظة النشأة إلى حيث "يُست... هلك" فقراءته دفن لصيرورته من حيث إنها تبشير لصيرورته"[1]، وأما من جهة (المخاطَب)، فقد ذكر بأنّ "الأسلوب... موجودٌ مائعٌ، ومفروضٌ مُعلّقٌ لا يتنزّلُ ولا يتجسّد إلا بإصابة الخطاب مرماهُ في نفس المتقبّل"[2]

فنفهم من وراء سوق هذه الآراء، بأنّ التوصّل إلى دلالة الأسلوب، متوقف على المخاطِب المرسل، الذي يملك فلسفة في التفكير والذوق والإبداع؛ ومن هنا، فهو ينفي أن يكون كلّ مخاطِب صاحب أسلوب، أو على الأصحّ، صاحب فُرادة.

وكذلك الأمر، بالنسبة لحديثه حول دلالة الأسلوب من جهة الخطاب، والتي ربطها بالدرجة الأولى بوجوده ككائن، ثم وجوده كمنشود؛ أي له ما يميزه عن باقي الموجودات، بحيث يكون منشودا، ويكون هدفا للقراءات والمقاربات، وأهلا لأن تتناوله أقلام اللغويين والنقاد، سواء بالمدح أو بالاستهجان، وإن كانت الأسلوبية قد تخلّت عن هذه الوظيفة للنقد الأدبي، فلم يبق لها إلا أن تكون مدخلا جيدا له.

وأخيرا، فإنّ معرفة الأسلوب تتم –أيضا– بالاستعانة بالمخاطَب، وليس أيّ مخاطَب، وإنما ذلك الذي ينجح الخطاب الأدبي في اختراق مواجيده والتأثير فيه وإصابته بخيبة الانتظار.

ب–تصنيفه وفق المدارس:

نذكر ضمن هذا السياق كتاب الناقد المصري (صلاح فضل)، بعنوان (علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته)، الذي نلاحظ فيه تصنيفا مختلفا عن تصنيف المسدّي –أعلاه– والذي جاء على النحو التالي:[3]

* المدرسة الفرنسية وتقنية التعبير اللغوي
* المثالية الألمانية والتقاط الحدس
* الاتجاه النقدي لدى الإيطاليين والإسبان

إذ نلاحظ من خلال هذا التصنيف، بأنّ الكاتب قد تبنّى طريقة العودة إلى الأصول الفكرية والفلسفية للاتجاهات الأسلوبية، حتى يبصّر القارئ بأنّ مرجعيات علم الأسلوب فكرية وفلسفية بالدرجة الأولى، وأنّ ما انتهت إليه من اتجاهات، إنما هو من فعل عملية التراكم والتصنيف المعرفيّ، التي تعتبر أهدافا كبرى[4]، تشترك فيها معظم المعارف والعلوم، وتسعى لتحقيقها.

ج–تصنيفه وفق المناهج:

وتحت هذا التصنيف انضوى العديد من اللغويين والنقاد، على اعتبار أنّ الاتكاء على مسمّى المنهج أدعى لأن يطبع الدراسة بالموضوعية والصبغة العلمية، ومن بين هؤلاء: نور الدين السد[5]، الذي صنف الأسلوبية إلى أربعة مناهج هي: الأسلوبية التعبيرية، الأسلوبية النفسية، الأسلوبية البنيوية، والأسلوبية الإحصائية.

---

[1] المرجع نفسه، ص69.

[2] عبد السلام المسدّي، الأسلوبية والأسلوب، ص68.

[3] يراجع: صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998م، ص18، 44، 73.

[4] أهداف العلم هي: الوصف، التصنيف، التصنيف، والفهم. ينظر: موريس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية تدريبات عملية، ترجمة مشتركة، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط، 2004م، ص56، 57.

[5] ينظر كتابه : الأسلوبية وتحليل الخطاب ج1، دار هومة، الجزائر، دط، 2010م، ص62 إلى ص103.

1- الأسلوبية التعبيرية:

رائدها شارل بالي (1865-1947)، وقد بدأ في التأسيس لها من خلال كتابيه: (في الأسلوبية الفرنسية) الصادر 1902م، و(المجمل في الأسلوبية) الصادر 1905م[1]، اللذان ناقش فيهما أفكاره حول الأسلوبية التي يرتكز حقلها أساسا على "ثنائية تكاملية هي من مواضعات التفكير اللساني...ظاهرة اللغة وظاهرة العبارة (**Langue/Parole**) وإذ يرغب (بالي) عن هذا التقسيم يصنف الواقع اللغوي تصنيفا آخر فيرى الخطاب نوعين: ما هو حامل لذاته غير مشحون البتة وما هو حامل للعواطف والخلجات وكل الانفعالات.."[2]، وقد قام (بالي) بالتعريف بمجال بحث أسلوبيته، فقال: "تدرس الأسلوبية وقائع التعبير اللغوي من ناحية محتواها العاطفي، أي التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة، وواقع اللغة عبر هذه الحساسية"[3]؛ فهي تدرس علاقة اللغة بالعاطفة وعلاقة العاطفة باللغة؛ ذلك أن معدن الأسلوبية -بحسب بالي- "ما يقوم في اللغة من وسائل تعبيرية تبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية بل حتى الاجتماعية والنفسية، فهي إذن تنكشف أولا وبالذات في اللغة الشائعة التلقائية قبل أن تبرز في الأثر الفني"[4]، غير أن أحد تلامذته وهو (كراسو) قام بتحويل "مفهوم (التعبيرية) إلى (الحدث الفني) أي مفهوم (الجمالية)"[5]، فصار الأدب بذلك -أو الخطاب الأدبي- مجالا خصبا للأسلوبية.

2- الأسلوبية البنيوية:

رائدها ميشال ريفاتير 1924- 2004 (**M. Rifattere**)، ويركز هذا الاتجاه على عنصرين هامين من عناصر الاتصال هما (الخطاب/ المخاطب بفتح الطاء)، فهو يحاول أن لا يغفل دور القارئ باعتباره جزءا من عناصر التوصيل ويعول عليه في تمييز بعض الوقائع الأسلوبية داخل النص، ولذلك يقترح ما يسميه (القارئ النموذجي(**Archilecteur**)، وهو ليس قارئا عاديا، بل مجموع الاستجابات التي يحصل عليها المحلل من القراء. ومن هنا، ففرضية (المخاطَب) في "قراءة ماهيات الأسلوب تقوم نقضا للمبدأ الأنتولوجي المطلق واعتراضا على أبدية الانتساب بين الباث وملفوظه...ولهذه التقديرات أبعادها الإبستيمية و أبرزها أن لا نص بلا قارئ، ولا خطاب بلا سامع[6] "ويقرر (ريفاتير) أن "استجابة القارئ العمدة لا تعني الباحث الأسلوبي... وإنما تنحصر فائدته في تعيين الوقائع الأسلوبية... ويبقى التفسير مهمة الباحث الأسلوبي"[7] فمهمة القارئ أن يحدد، ومهمة الأسلوبي أن يحلل.
ولما كانت الدلالة عنصرا مهما يفترض أن يقوم عليه كل خطاب، تناولها هذا الاتجاه بالدراسة، فأخضعها إلى أربعة مقاييس:[8]

-دلالة أساسية معجمية.

-دلالة صرفية.

---

[1] يراجع : موسى ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي، إربد الأردن، ط1، 2003م، ص10.
[2] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص ص : 34- 35.
[3] صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص18.
[4] المرجع السابق، ص ص: 36- 37.
[5] المرجع نفسه، ص39.
[6] المرجع نفسه، ص68.
[7] نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب ج1، ص92.
[8] المرجع نفسه، ص94.

–دلالة نحوية.

–دلالة سياقية موقعية.

3– الأسلوبية الإحصائية:

يعد بيار جيرو (1912-1983) (**Pierre Guiraud**) من رواد الأسلوبية الإحصائية، وقد اهتم –بشكل خاص- باللغة المعجمية، أي أنه قام برصد المعجم الأسلوبي لدى مجموعة من المبدعين، أمثال: (فاليري)، (أبولينير)، (كورناي)...مستثمرا آليات الإحصاء كالتكرار، والتردد، والتواتر، والضبط، والعزل، والجرد، والتصنيف...[1] فالإحصاء سمة تميز هذا الاتجاه الأسلوبي، وذلك سعيا إلى موضَعة الدراسة الأسلوبية قدر الإمكان.

وتستعين الدراسة الأسلوبية بالإحصاء في المجالات الآتية:[2]

–المساعدة في اختيار العينات اختيارا دقيقا بحيث تكون ممثلة للمجتمع.

–قياس النسبة بين تكرار خاصة أسلوبية و تكرار خاصة أخرى للمقارنة بينهما.

–قياس كثافة الخصائص الأسلوبية...عند منشئ معين أو في عمل معين.

ولتشخيص العمل الأدبي، تم اعتماد معادلة (بوزيمان)، وذلك بواسطة تحديد النسبة بين مظهرين من مظاهر التعبير: أولهما التعبير بالحدث (**Active Aspect**)، وثانيهما التعبير بالوصف(**Aspect Qualitative**) وذلك بإحصاء عدد الكلمات التي تنتمي إلى النوع الأول وعدد كلمات النوع الثاني ثم إيجاد حاصل القسمة بينهما...فكلما زادت القيمة كان طابع اللغة أقرب إلى الأسلوب الأدبي، وكلما نقصت كان أقرب إلى الأسلوب العلمي..[3]، فبقسمة عدد الأفعال على عدد الصفات يتم تحديد مدى قرب اللغة من الأسلوب الأدبي أو العلمي.

4– الأسلوبية النفسية:

وقد لاحظنا ضمن الاتجاه الأسلوبيّ النفسي، أنّ صاحبه (ليو سبتزر) (**L. Spitzer**) قد تعامل مع الخطاب السرديّ بادئ الأمر، فارتأينا أنّ أقرب منهج أسلوبي للخطاب السردي هو الأسلوبية النفسية.

2.2 الأسلوبية وتحليل الخطاب السردي

لعلنا لا نجانب الصواب، إذا قلنا بأنّ (ليو سبتزر) من أوائل من أسّس للمقاربة الأسلوبية للخطاب السرديّ، وذلك من خلال دراسته "أعمال أدباء من أمثال سيرفانتس وديدرو وكلوديل... وغيرهم، ويتلخص منهجه في النقاط التالية:

-المنهج ينبع مع الإنتاج وليس من مبادئ مسبقة، وكل عمل أدبي فهو مستقل بذاته.

-الإنتاج كلٌّ مُتكامل، ورُوح المؤلف هي المحور الشمسي الذي تدور حوله بقية كواكب العمل ونجومه، ولا بدّ أن نجد مفتاح العمل في واحدة من أجزائه أو تفاصيله.

[1] ينظر: جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، الألوكة، دط، 2005م، ص5 وما يليها.

[2] ينظر: سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، ص57 وما يليها.

[3] المصدر نفسه، ص74.

-نحن نخترق العمل الأدبي ونصل إلى محوره من خلال الحدس ولكنّ هذا الحدس ينبغي أن تمحصه الملاحظة في حركة ذهاب وعودة، من محور العمل إلى حدوده وبالعكس، وهذا الحدس في ذاته هو نتيجة الموهبة والتجربة والتمرّس في الإصغاء إلى الأعمال الأدبية.

-عندما يتم إعادة تصوّر عمل ما فإنه ينبغي البحث عن موضعه في دائرة أكبر عنه، هي دائرة الجنس الذي ينتمي إليه، والعصر والأمة، فكلّ مؤلف يعكس روح أمّته.

-الدراسة الأسلوبية ينبغي أن تكون نقطة البدء فيها لغوية، ولكن يمكن لجوانب أخرى من الدراسة أن تكون نقطة البدء فيها مختلفة"[1] إلى غير ذلك من المراحل التحليلية.

مما لاحظناه على هذه الخطوات، أنّها تتقاطع مع ما جاء به (هيبوليت تين) الذي درس النصوص الأدبية في ضوء تأثير ثلاثيته الشهيرة:[2]

1-العرق أو الجنس: بمعنى الخصائص الفطرية الوراثية المشتركة بين أفراد الأمة الواحدة المنحدرة من جنس معين.

2-البيئة، أو المكان أو الوسط: بمعنى الفضاء الجغرافي وانعكاساته الاجتماعية في النص الأدبي.

3-الزمان أو العصر: أي مجموع الظروف السياسية والثقافية والدينية التي من شأنها أن تمارس تأثيرا على النص.

ومن الدراسات التي تعاملت مع الخطاب السردي أسلوبيا، يمكن ذكر كتاب (المبدأ الحواري) ميخائيل باختين، وكتاب (الأفكار والأسلوب) أ: ف، تشيتشرين عند الغرب، وأما عند العرب فيمكن أن نذكر ما كتبه (نور الدين السد) في كتابه (الأسلوبية وتحليل الخطاب ج2) وكذا (حميد لحمداني) في كتابه (أسلوبية الرواية مدخل نظري)، و(عدنان بن ذريل) في كتابه (النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق. ومن خلال تأمّل هذه العناوين، يمكن أن نقول –بتحفظ– إنّ جلّ الدراسات النقدية التي قامت بدراسة الجانب الإبداعي في النصوص السردية، يمكن اعتبارها مداخل منهجية لأسلوبية الخطاب السردي، أو ما يسمى بأسلوبية الرواية.

3.2 . قراءة أسلوبية انتقائية في كتاب: "الإمتاع والمؤانسة"[3]

أ/– نظرة على الدراسات السابقة

لقد تطرّقت العديد من الدراسات، لكتابات أبي حيان التوحيدي، فتناولته من جوانب مختلفة، وفيما يلي، بسط لبعضها:

فقد كتب فيه المفكر (عمارة محمد) كتابا تحت عنوان (أبو حيان التوحيدي بين الزندقة والإبداع)[4]، تعرّض فيه إلى مناقشة جملة من القضايا، وهذا هو فهرس الكتاب:

- تمهيد
- هل كان التوحيدي زنديقا؟
- وهل كان التوحيدي فيلسوفا؟
- وهل كان معتزليا؟

---

[1] رابح بن خوية، مقدمة في الأسلوبية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2013م، ص57، 58.

[2] ينظر : يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية الجزائر، ط3، 2015م، ص16.

[3] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، دط، 2011م.

[4] محمد عمارة، أبو حيان التوحيدي بين الزندقة والإبداع، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، دط، 1997م.

- وهل كان متصوفا؟
- وهل أحرق التوحيديّ كتبه؟
- مكانة التوحيدي بين "الرواية" و"الإبداع"
- كتاب الإمتاع والمؤانسة
- وكتاب المقابسات
- وكتاب الصداقة والصديق

واستثمر (الشريف الأدرع) أسلوب (التوحيدي) في توليد نصوص جديدة، أطلق عليها اسم (هوامل الكلام ما لم يقله أبو حيان التوحيديّ وصاحبه مسكويه)، أصدرها في كتاب بهذا العنوان، ذكر في صفحاته الأولى، الغرض من وضع هذا الكتاب، فقال:

"ليس بدعة إذن؛ أن نستدعي أئمة السخرية في تمثيلنا المتعدد لحكايات المثقفين؛ من سقراط إلى التوحيدي، إلى رضا حوحو، وبوجه أخصّ كبيرهم جحا.

ويجري استدعاؤنا لهم بمعية كوكبة من أهل الفكر والفلسفة والأدب والفن؛ من كاتب ياسين، إلى آسيا جبار، إلى جان بول سارتر، إلى المرحوم عبد الله بوخالفة الذي كان يرى نفسه ابن مهيدي الشعر الجزائري"[1]

وأما بالنسبة للدراسات الأكاديمية، فيمكن أن نسوق للقارئ النماذج التالية:

- أسماء بنت قلّح، فن المناظرة من منظور تداولي "الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي أنموذجا"، ماجستير، تحت إشراف: د. صلاح الدين ملّاوي، جامعة محمد خيضر بسكرة، السنة الجامعية: 2011/ 2012.
- حمزة قديري، البراعة اللغوية في صناعة النثر عند أبي حيان التوحيدي الإمتاع والمؤانسة –أنموذجا–، دكتوراه علوم، تحت إشراف: د. غانم حنجار، جامعة ابن خلدون تيارت، السنة الجامعية: 2020/ 2021.

هذا فضلا عن العديد من الأبحاث والدراسات، التي يقصر المقام عن الإحاطة بها جميعا.

ب/– قراءة أسلوبية انتقائية للمدونة

مما تعوّدنا سماعه من الخطباء وأصحاب المنابر، أن يباشروا أحاديثهم بالكلام المسجوع، الذي يتكئ على الرنة الصوتية الأخيرة، في تسطير الكلمات وتوزيع المعاني، وهو الأمر الذي لاحظناه، في مطلع كتابه (الإمتاع والمؤانسة)، إذ كتب يقول:

"نجَا من آفات الدنيا مَن كان من العارفين ووصَل إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين، وظَفر بالفوز والنعيم من قطَع طَمَعه من الخلق أجمعين، والحمدُ لله ربّ العالمين، وصلّى الله على نبيّه وعلى آله الطّاهرين"[2]

فإضافة إلى الرنة الصوتية التي تكررت نهاية كلّ مقطع، وجدنا أن لهذا المسلك الأسلوبيّ جماليات أخرى، ومن بين تلك الجماليات، أنّ سوق الكلام على هذا النحو، مما يعين المتكلم على (استدعاء) الأفكار، عبر حصرها في زاوية صوتية، تستدعي بدورها زوايا

[1] الشريف الأدرع، هوامل الكلام ما لم يقله أبو حيان التوحيدي وصاحبه مسكويه، منشورات البرزخ، الجزائر، دط، 2007م، ص5.

[2] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، دط، 2011م، ص33.

أخرى تركيبية ودلالية ولفظية؛ فأما التركيبية فقد تراوحت الجمل بين الفعلية والاسمية، وأما الدلالية فنجدها ترتبط ارتباطا معجميا وتعريفيا، كأننا أمام جمل تشرح بعضها بعضا، وفق هذه المعادلات:

نجا من آفات الدنيا= من كان من العارفين

وصل إلى خيرات الآخرة= من كان من الزاهدين

ظفر بالفوز والنعيم= من قطَع طمعه من الخلق أجمعين

ليختم كلامه، بما لا يُعرّف إلا باسمه: الله جلّ جلاله؛ الحمد لله رب العالمين، وقرن إليه الصلاة على النّبيّ، صلى الله عليه وسلم؛ فوردت هاتين العبارتين، منزاحتين عن الإيقاع الصوتي الذي امتدّ على طول العبارات السالفة.

ومثلما يستعين التوحيدي بالرنة الموسيقية للكلمات، في صناعة الطباق والمقابلات، نجده يستعمل الجمل الاعتراضية بكثرة، لا ليضمّنها كلاما لا معنى له ولا محلّ له، بل ليفتح بابا إلى فن المدح، ونافذة على الدعاء، وهلم نصبا من المعاني، ومن ذلك قوله: "فقلتُ: والله أيها الوزيرُ، ما أعرفُ اليوم ببغداد –وهي الرُّقعة الفسيحة الجامعة، والعَرصة العريضة الغاصّة– إنسانا أشكر لك، وأكثرَ ثناءً عليك"[1]

إذ وجدناه قد استعان بالجملة الاعتراضية لينال قسطا من الوقت، يستجمع فيه معاني نفسه، ويكسوها بما يلائمها من العبارات، يستعين على استحضارها بالاستطراد التعريفيّ وأسلوب التفضيل.

وبعيدا عن الإطناب المملّ والإيجاز المخلّ، يستثمر (التوحيديّ) في حرف (أمّا)، لا لتحقيق معنى الشرط غير الجازم، ولكن بقصد التحوّل إلى السرد باستعمال الجمل القصيرة، بعدما كان يستعمل الطويلة، وهو الأمر الذي نلاحظه بشكل بارز، في قوله: "أمّا شيخُنا أبو سُليمان، فإنه أدقّهم نظَرًا، وأقعرُهُم غَوصًا، وَأصفاهُم فِكرًا، وأظفرهُم بالدُّرر، وأوقفُهم على الغُرَر..."[2]

فقد أثمر توظيف (أما) في هذا السياق، ليمنح الكاتب فسحة للمراوحة بين الألفاظ وأشباه الجمل (جار ومجرور)، حتى يتسنى للقارئ أخذ نفَس من استمرارية السرد على نفس الأسلوب؛ مما قد يجلب إليه الضجر والملل والسأم.

وجريا على أساليب القدماء، في مخاطبة قرّائهم الافتراضيين، كالجرجاني وابن رشيق وابن سنان الخفاجي وغيرهم، يستثمر التوحيديّ أيّما استثمار، في توظيف أسلوب الحوار، معزّزًا إياه بالأدلّة العقلية والمنطقية والدينية، حتى يقنع المتلقّي بما هو بصدد بَسطه، وهو الأمر الذي امتدّ على طول الكتاب موضوع الدراسة، ولكننا سوف نجزئ الكلام على نموذج واحد فقط، على سبيل الاستئناس والانتقاء الموضوعيّ، إيمانا منّا بأنّ صاحب الأثر يختارُ ليخلُق شيئًا، بينما يختار الدارسُ ليُفسّر عملية الخلق هذه.[3]

أورد (أبو حيّان التوحيديّ) في (الليلة الرابعة والثلاثين)، ما نصّه:

"وقال الوزيرُ في بعضِ الليالي: قد والله ضاقَ صدري بالغيظ لما يبلُغني عن العامّة من خوضها في حديثنا، وذكرها أمورَنا، وتتبُّعها لأسرارنا، وتنقيرِها عن مكنُون أحوالنا، ومكتُوم شأننا، وما أدري ما أصنع بها، وإنّي لأهُمُّ

[1] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1، ص48.

[2] المرجع نفسه، ص49.

[3] يُنظر: محمد الصاوي الجويني المعاني علم الأسلوب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، 1996م، ص253.

في الوقت بعد الوقت بقطعِ ألسنةٍ وأيدٍ وأرجلٍ وتنكيلٍ شديدٍ، لعلّ ذلك يطرح الهيبة ويحسمُ المادة، ويقطعُ هذه العادة لحاهُمُ الله، ما لهم لا يُقبِلُون على شُؤونهم المهمة، ومعايشهم النافعة، وفرائضهم الواجبة؟ ولمَ يُنقّبون عمّا ليس لهم، ويُرجفون بما لا يُجدي عليهم، ولو حقّقوا ما يقُولون ما كان لهم فيه عائدة ولا فائدة؛ وإني لأعجَب من لَهجهم وشَغَفهم بهذا الخُلق حتى كأنه من الفرائض المحتُومة، والوظائف الملزُومة؛ وقد تكرّر منا الزّجر، وشاعَ الوَعِيدُ، وفَشا الإنكارُ بين الصغار والكبار، ولقد تعايَى عليّ هذا الأمرُ وأُغلق دُونِي بابُه، وتكاثفَ عليّ حِجابُه، واللهُ المستعانُ.

فقلت: أيها الوزير، عندي في هذا جوابان: أحدهما ما سمعتُ من شيخنا أبي سليمان، وهو من تفوّق في الفضل والحكمة والتجربة ومحبّة هذه الدولة والشفقة عليها من كلّ هبّة ودبّة؛ والآخرُ مما سمعته من شيخٍ صوفيٍّ، وفي الجوابين فائدتان عظيمتان، ولكنّ الجملة خشناءُ، وفيها بعضُ الغِلظة، والحقّ مرٌّ، ومَن توخّى الحقَّ احتملَ مَرارتَهُ.

قال: فاذكُر الجوابين وإن كانا غليظيْن، فليس يُنتفع بالدواء إلا بالصبر على بشاعته، وصُدود الطّبع عن كراهته.

قلتُ: أما أبو سليمان، فإنه قال في هذه الأيام: ليس ينبغي لمن كان الله عزّ وجلّ جعَله سائسَ الناس: عامّتهم وخاصّتهم وعالمهم وجاهلهم، وضعيفهم وقويّهم، وراجِحهم وشائلِهم، أن يضجرَ ممّا يبلُغُهُ عنهم أو عن واحدٍ منهم لأسباب كثيرة، منها: أنّ عقله فوق عُقولهم، وحِلمَهُ أفضل من حُلومهم، وصبره أتمّ من صبرهم؛ ومنها أنّهم إنما جُعلوا تحت قُدرته، ونيطوا بتَدبيره، واختُبروا بتصريفهم على أمره ونهيه، ليقوم بحقّ الله تعالى فيهم، ويصبر على جهل جاهلهم، ويكونَ عماد حالهم معهم الرّفق بهم، والقيام بمصالحهم، ومنها: أنّ العلاقة التي بين السلطان وبين الرّعيّة قويّة، لأنّها إلهيّة، وهي أوشَجُ من الرّحم التي تكون بين الوالد والولد، والملكُ والدٌ كبيرٌ، كما أنّ الولدَ ملكٌ صغيرٌ، وما يجب على الوالد في سياسة ولَده من الرفق به، والحُنوّ عليه، والرّقّة له، واجتلاب المنفعة إليه، أكثر مما يجب على الولد في طاعة والده، وذلك أنّ الولد غِرٌّ، وقريبُ العهد بالكون، وجاهلٌ بالحال، وعارٍ من التجربة، كذلك الرّعيّة الشبيهة بالولَد، وكذلك الملك الشبيه بالوالد؛ ومما يزيد هذا المعنى كشفا، ويُكسبه لُطفًا، أنّ الملك لا يكون ملكًا إلا بالرّعيّة، كما أنّ الرّعيّة لا تكون رعية إلا بالملك، وهذا من الأحوال المتضايفة، والأسماء المتناصفة؛ وبسبب هذه العلاقة المحكمة والوُصلة الوشيجة، ما لهِجتِ العامة بتعرّف حالِ سائسها، والناظر في أمرها، والمالك لزمامها، حتى تكون على بيانٍ من رفاهة عيشها، وطِيب حياتها، ودُرُور موارِدها، بالأمن الفاشي بينها، والعدل الفائض عليها، والخير المجلُوب إليها، وهذا أمرٌ جارٍ على نظام الطبيعة، ومندُوبٌ إليه أيضا في أحكام الشريعة".[1]

فالملاحظ على هذا الحوار الشائق، أنه قد انتقل من لغة الغضب العارم، والوعيد الشديد، إلى لغة النصح والإرشاد، والتي نجح الكاتب في نقل جوّ الخطاب إليها، عبر إحداث تغيير على أسماء العلاقات التي تربط المرسل (الحاكم) بالمتلقي (الرعيّ)، فالنفس تأنس إلى نوع من العلاقات وتأنف عن بعضها الآخر، وهو الأمر الذي اعتمده (أبو حيان) في تنحيته لمسمّى الملك والرّعية، لما فيه من حساسية شديدة، تستوجبها علاقة الحاكم بالمحكوم، فهي أدنى إلى البطش والتسلط والعنف، وانتقل بالحوار إلى سكة الأمان، عبر منح (الحاكم) صفة الأب ومنح الرعيّة صفة (الأولاد)، سعيا منه إلى استدعاء مقتضيات هذه العلاقة في ممارسة مهام الحاكم؛ فالأب يقسو أحيانا ويحنّ أحيانا، وإذا عاقب فمحبة وحرصا على الخير، وإذا أكرمَ كان الإكرام من القلب خالصًا، وإذا ضحّى كانت التضحية صافية، وإذا بذل كان البذل الذي لا منّ فيه ولا تضييق؛ يبيع حوائجه ليلبس ولده، ويزاول أصعب المهام ليجعله

[1] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3، ص337، 338.

يدخل المدرسة، ويطلب العلم، ويصنع له مكانة في المجتمع. يؤدّبه على الدين والأعراف، وإن احتاج شيئا من والده أن يقبل ولا يخاف.

هكذا نجح (التوحيديّ)، في كبح جماح (الحاكم)، وتهدئة روعه، وترتيب أفكاره، وإيقاظ وازع الدين فيه، وبثّ روح المسؤولية لديه، عبر جملة من الأدلة والبراهين العقلية والعاطفية والدينية، ساقها له متتابعة، وفيما يلي بعضها:

- ذكر الشيخ سليمان، دون أن يهمل أفضاله وأخلاقه، حتّى يرغّب الوزير إلى السماع.
- ذكر الشيخ الصوفي دون أن يُورد تعريفا خاصا به ولو على سبيل الإيجاز؛ وهو الأمر الذي يعكس أخلاق الصوفيين، التي تقضي بالابتعاد عن الرياء والسّمعة، وقد كان كافيا للوزير أن يقتنع باسم الصوفي، جريًا على هذا المعنى.
- ذكر أنه ليس يُنتفع بالدواء إلا بالصبر على بشاعته؛ وهذا معلوم بالمعاينة والتجربة؛ إذ نجد بعض الأدوية مرّة أكثر من العلقم، لكنّ فوائدها آنية وجمّة.
- ذكّر الحاكم بالله، عبر تذكيره بأنّ ما هو فيه من ملك إنما هو من الله، وإن ما يقع على عاتقه يستوجب منه أداء مهامه كاملة، حتى يحبّه الرّعية، ويلتزموا طاعته.

وعطفا على ما سبق، فإنّ هذه التوكيدات والتعليلات، لم تأت إلا في أساليب متنوعة، كالجناس الناقص (الوالد والولد)، (المتضايفة والمتناصفة)، وكالتصريف الذي أعمله في الكلمات (عقله- عقولهم)، (حلمه- حلومهم)، (صبره- صبرهم)، مما أكسب سياق الكلام طابع المقارنة والمفاضلة.

ولا يفوتنا أيضا، أن نشير كذلك، إلى أنّ النص أعلاه، قد احتمل أسلوب الالتفات، ومن ذلك: الانتقال من المتكلم إلى الغائب (قلتُ: قال أبو سفيان) وهلم جرًّا.

ج/- كتاب الإمتاع والمؤانسة وسؤال الجنس الأدبي:

إنّ من يتأمّل كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، يجد أنّه زاخر بالحكايات، وعامر بالمواعظ والحكم، التي جرى على كتابتها العديد من الكتّاب القدامى، فوضعوا في ذلك كتبا متنوعة، إلى جانب الكتب النحوية والبلاغية واللغوية والدينية، كتبا أخرى تمتح من كلّ ما سبق، لتسوق المعرفة في قالب قابل للاستهلاك، في صيغ كثيرة كالفكاهة والنادرة والحكايات، ضمّنوها كتبا تحمل عناوين تُغري بالقراءة، ومن تلك الكتب:

- المستطرف في كلّ فنّ مستظرف/ الأبشيهي
- صيد الخاطر/ ابن الجوزي

وغيرها من النماذج الكثيرة، التي ليس هذا مقام الخوض فيها. ولعلّ كتاب (الإمتاع) أن يكون واحدا منها، وذلك بالنظر إلى محتوياته، التي جاءت متسلسلة في شكل ليالٍ، يحكي فيها الكاتب في كلّ ليلة، ما جرى له مع الناس؛ حكّامًا ومحكومين، وزهّادًا وعارفين، وأعلام وعاميّين، مما يدلّ على أنّه كتاب أدنى إلى جنس الرواية، ولو بتحفظ.

لقد جرى في العرف النّقديّ، أنّ ما يشكّل كينونة الرواية[1] ويمنحها وجودها، هو احتواؤها على جملة من المكوّنات، كالشخصيات، والأماكن، والأزمنة، والحوار، والحبكة، وغير ذلك من المعطيات التي لا يُشترط أن ترد بشكل ظاهر ومتتابع وخطّي. وقد وجدنا هذه المكونات مبثوثة على طول الكتاب –موضوع الدراسة، وفيما يلي جدول تمثيلي لبعض النماذج:

الشخصيات	المكان	الزمان	الحوار	الحبكة
الشيخ (ص43)	عُرف البهرجُ الذي ضرب (خارج الدار) والجيّد الذي ضرب (داخل الدار) (ص65)	وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة (ص77)	قال يومًا: من في الدار؟ فقيل له: أبو القاسم الكاتب وابن ثابت (ص62)	يُنظر استعانة الكاتب بعلاقة الأب وابنه لكبح جماح الوزير، ابتداء من ص337 (ج3)
الوزير ابن فرات (ص90)	فينزلون الرابية من حضرموت (ص77)	أظنّ انه قد نصَف الليلُ (ص87).	ثم إنّي أيها الشيخ.. ذكرتُ للوزير (ص89)	تابع للنموذج أعلاه
أبو سليمان (ص141)	المجلس (ص162)	وأظنّ الليل قد تمطّى بصُلبه (ص144)	فقال: يا هذا.. (ص167)	تابع للنموذج أعلاه

الجدول: يمثّل نماذج مكونات الرواية، التي توفّرت معظمها بالمدونة

نفهم مما سبق، بأن **الرواية** جنس الأدبيّ، يقوم على الوصف بأشكال متفاوتة، وهذا الوصف ينصبّ "على عناصر رئيسية أربعة: هي الشخصيات والأمكنة، والأشياء، والوسائل، إما بشكل انتقائي، وإما بشكل تفصيلي"[2]

4. خاتمة:

لقد تطرقنا في ورقتنا البحثية هذه، إلى دراسة لكتاب (الإمتاع والمؤانسة)، عالجنا فيها بعض ما يتميز به أسلوب الكاتب، من حوار وجناس وطباق، وجمل قصيرة، وطويلة، وحجاج وغيرها، ثم ختمنا ذلك بذكر نماذج مما يحتويه من عناصر الرواية الأساسية كالمكان والزمان والحوار والشخصيات والحبكة.

ندعُو من خلال دراستنا المتواضعة هذه، إلى رفع الحجَابِ عن تراثنا البلاغي والنقدي؛ فهو غنيٌّ بالظواهر البلاغية والأسلوبية والقضايا الفكرية والنقدية، الجديرة بالمتابعة والدراسة والمقاربة، وفق ما جدّ في السَّاحتيْن اللغوية والنقدية من أدواتٍ ومناهجَ وتقنياتٍ.

[1] يُنظر مثلا: أ. أ. مندلاو، الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، مراجعة: إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1997م.
[2] جميل حمداوي، مرجع سابق، ص111.

5. قائمة المراجع:

- أ. أ. مندلاو، الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، مراجعة: إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1997م.
- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، دط، 2011م.
- الشريف الأدرع، هوامل الكلام ما لم يقله أبو حيان التوحيدي وصاحبه مسكويه، منشورات البرزخ، الجزائر، دط، 2007م.
- جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، الألوكة، دط، 2005م.
- رابح بن خوية، مقدمة في الأسلوبية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2013م.
- سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، ط3، القاهرة، 1992م.
- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998م.
- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط5، 2006م
- محمد الصاوي الجويني المعاني علم الأسلوب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، 1996م، ص253.
- موريس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية تدريبات عملية، ترجمة مشتركة، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط، 2004م.
- موسى ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي، إربد الأردن، ط1، 2003م.
- نور الدين السد الأسلوبية وتحليل الخطاب ج1 و ج2، دار هومة، الجزائر، دط، 2010م.
- يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية الجزائر، ط3، 2015م.